

تاريخ البحث في علم الإتصال

الدكتور فضيل دليو

أستاذ محاضر معهد علم الاجتماع

- جامعة قسنطينة

ان الإتصال بين الناس يمثل ، منذ القدم ، موضوعاً مثيراً بالنسبة للثقفين . ومع ذلك فإنه لم يصبح مادة للبحث بالنسبة للعلماء إلا منذ وقت قليل نسبياً . وفيما يلي نقدم ملخصاً عاماً لتاريخ البحث في علم الإتصال من خلال أهم المدارس والنظريات الخاصة به كعلم مستقل بذاته ، وذلك حسب عرض «جوديت لازار» في كتاب «علم الإتصال»^(*) .

بعد الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر الرغبة في إنشاء علم إتصال مستقل ، لكن المهتمين والباحثين في هذا المجال لم يتفقوا في ذلك ... وانقسموا رسمياً إلى مدرستين كبيرتين للإتصال .

- «المدرسة الامبريقية» ، بقيادة «لازار سفيلد» .

- و«المدرسة النقدية» ، بقيادة قدماء مدرسة فرانكفورت من أمثال «هوركايمر ، أدورنو ، ماركوس وفروم» .

وإذا كانت المدرسة الأولى تتميز على العموم بالمنهج الكمي ، بالوظيفية وبالوضعية ، فإن أتباع المدرسة الثانية يعطون الأولوية ، في تحاليلهم ، للمحيط الإجتماعي الذي تتم فيه عملية الإتصال ...

تأثرت المدرسة النقدية منذ البداية بالفكر الماركسي حيث كان أتباعها يركزون أساساً على المحيط الإجتماعي ، السياسي والإقتصادي للبلد الذي تمت فيه عملية الإتصال . فكانوا يتساءلون دائماً : «من يتحكم في الإتصال ؟» ، «لماذا ؟» ، «لفائدة من ؟» ، هذا بالإضافة إلى رفضهم للجانب الإداري للمدرسة الامبريقية التي يعيرون عليها تركيزها على الإتصال وإهمالها للمحيط التاريخي والثقافي . وهو الأمر - حسب رأيهم - الذي يشوه حقيقة الإتصال .

من جهتهم ، يدافع أتباع المدرسة الامبريقية عن الموضوعية ويرفضون البحث النظري المجرد الخالي من المعطيات الموضوعية .

التوجهات الحالية :

إذا كان مجال علم الإتصال يتميز في بدايته بالشائبة المذكورة أعلاه ، فإنه بعد الستينيات ، أصبح أكثر تنوعاً :

(1) انقسم أتباع المدرسة النقدية إلى عدة اتجاهات ، كل واحد منها اهتم بمؤشر واحد دون غيره من المؤشرات ولكن مع التركيز دائماً على التغييرات والصراعات :

✧ فالبعض منهم (أصحاب المقاربة الإقتصادية السياسية) اهتم بدراسة التعامل الإقتصادي ومن ثم ركز مجهوداته على تحليل بنية أو نسق ملكية وسائل الإتصال وكيفية عملها ، كما جعل من الضبط الإجتماعي مركزاً لاهتمامه .

✧ أما المقاربة «الشمولية» ، فهي شبيهة بسابقتها مع فرق وحيد يمثل في كون أصحاب هذه الأخيرة يعطون الأولوية للعامل الايديولوجي على حساب العامل الإقتصادي ، فهم يهتمون بدراسة مظاهره المختلفة وآليات ديمومته .

✧ نفس الشيء بالنسبة «للنظرية الثقافية» و«الامبريالية الثقافية» اللتين تعتبران سليلتا المدرسة النقدية أيضاً ، التي تكونت في جامعة «برمنغهام» ، تحاول أن تفسر معنى الثقافة الشعبية من خلال مجموع التجربة الثقافية ، مطالبة بتحليل «الكل» بدلاً من عزل مجال ثقافي بعينه . أما الثانية فإن باحثيها ، وتحت اسم «الامبريالية الثقافية» ، يتكلمون عن عملية زرع منتوجات الاتصال الجماهيري الغربية في البلدان النامية ، معتبرين بأن القيم الموردة الى هذه الأخيرة هي قيم الرأسمالية التي تلوث الطبيعة المحلية وتستعمرها ، عن طريق الرسائل المبعوثة .

(2) أما المدرسة الامبريقية ، فبالرغم من محافظتها على مطالبها الرئيسية ، فإنها تفرعت الى مداخل مختلفة تبعاً لتركيز اهتمام الباحثين على «الآثار» ، «الاستعمالات» أو «المحتوى» :

✧ إن البحث حول «استعمال» وسائل الإتصال ، تحت عنوان «الاستعمال والرضا» جلب اهتمام الكثير من الباحثين الذين أرادوا التعرف على «ماذا يفعل الجمهور بالوسائل ؟» بدلاً من «ماذا تفعل الوسائل بالجمهور ؟» . وقد انتشر هذا التوجه في

السبعينيات ، حيث كثف الباحثون من مجهوداتهم حول دراسة رضا الجمهور ، محاولين وضع معاملات الارتباط بين طلبات ودوافع الجمهور ، وبين تأثيرات وسائل الاتصال . أما في أيامنا هذه ، فالباحثون يهتمون بالمشاركة الإيجابية للجمهور في بناء معاني خاصة بالوسائل التي يستقبلها وذلك في إطار مقارنة «نفسية - إجتماعية» أو «تفاعلية» مع الدينامكية الثقافية للمحيط الذي ينتمي إليه هذا الجمهور .

✧ أما التوجه الثاني الذي تفرغ عن المدرسة الأميركية فيتمثل في الدراسات المنجزة في إطار تمديد وتعميق «العلاقة البيشخصية» وتعني بها البحوث التي تجري حول «نشر الابتكارات» .

أن هذه المقاربة تنطلق فعلاً من الدور الحاسم الذي يلعبه التأثير الشخصي في عملية النشر ، ومن ثم تحاول تحليل مجموع عملية الابتكار ، حيث يركز الاهتمام على نشر الابتكارات على مراحل وعلى المعرفة الامبريقية للعوامل المساعدة على تبني الابتكار المدروس من طرف الأشخاص ، لقد برهن الباحثون في هذا المجال على الأهمية الرئيسة للاتصال في عملية تبني الابتكارات .

✧ أما نظرية «الثقافة» فتربط بين محتوى الإتصال الجماهيري وتأثيراته المحتملة على الأفراد والمجتمع . فهي من منظور وظيفي تمكن من معالجة محتوى وتأثيرات وسائل الإتصال وخاصة منها التلفزة . إن أتباع هذه النظرية يعملون على البرهنة بأن للتلفزة تأثير في تكوين الرأي العام على المدى البعيد ، وذلك بزراع (مثل المزارع الحقيقي في ميدان الفلاحة) ، مواقف ، أذواق واختيارات الجمهور ... وفي كلمة واحدة «صورته» . وهم يرون بأن العالم المقدم من طرف التلفزة هو عالم مخترع ووهي لا تكاد تكون له أدنى علاقة بالحياة الحقيقية ، وقد خصص هؤلاء الباحثون تحاليل واسعة للعنف ، للتفرقة الجنسية وللاقلقيات ، يبرهنون فيها على الفرق الشاسع الموجود بين عالم التلفزة والعالم الحقيقي .

أما نظرية «التبعية» فهي مقارنة سوسيولوجية ، تحاول أن تحدد تحت أي من الشروط يصبح فيها الأفراد تابعين لوسائل الاتصال الجماهيرية . إن منظريها يبرزون العلاقة المتزايدة المتبادلة بين نظام الوسائل وأنظمة اجتماعية أخرى . إن هذا التفاعل يؤثر على محتوى وسائل الإتصال ومن خلالها على تبعية الجمهور لها . فكلما وفرت وسائل الإتصال خدمات مهمة - نشر الأخبار والتسلية - كلما كان الجمهور تابعاً لها .

ومن ثم ، فهم يرون ، بأن الأفراد الأكثر تبعية لهذه الوسائل هم الأكثر تعرضاً لتأثيراتها في معتقداتهم وتصوراتهم عموماً .

(3) هناك توجه ثالث يتميز كلياً عن التوجهات السابقة ، ويتمثل فيما يسمى «بالختمية التكنولوجية» . إنها نظرية جديدة تقترح توجهاً لا يلتقي مع أي من المدرستين الكبيرتين المذكورتين أعلاه .

ترجع أصول هذه النظرية الى أعمال «هارولد إينيس» ومارشال ماكلوهان» الذين أعطيا في أعمالهما دوراً رئيسياً للوسائل في عملية الإتصال بل وحتى في تنظيم المجتمع كله . لقد ركزا في تحاليلهما على التكنولوجيا المستعملة في وسيلة الإتصال المسيطرة في كل مرحلة تاريخية معينة :

إن مساهمات «ماكلوهان» التي انتقدت بشدة عدة مرات أعيد لها الإعتبار وبجدية في السبعينيات . لقد كان يرى بأن المواصفات الأساسية لوسيلة الإتصال المسيطرة بإمكانها أن تدلنا على كيفية التفكير وكيفية تنظيم المعلومات ، إن الأبحاث التي تهتم بإشكالية محو الأمية - وهو مجال الدراسة الذي أصبح خصباً ابتداء من السبعينيات - تتغذى جذورها من هذا التوجه . وفي الحقيقة فإن هذه المقاربة تتفرع الى ثلاثة توجهات .

☆ أولها يهتم بالآثار المعرفية لمحو الأمية وعلاقة هذه العملية بالثقافة التي يعيش فيها الشخص المعرض لمحو الأمية ، بحيث أنه لا يمكن تقويم عملية محو الأمية بعيداً عن الممارسات الإجتماعية الأخرى لأنها لا توجد خارج المحيط .

☆ أما التيار الثاني فيركز على العلاقات التي تربط عملية محو الأمية بالسلطة ، ومن ثم فهو يحاول أن يعرف ما إذا كان محو الأمية وسيلة لنشر السلطة أو وسيلة لاستغلالها ؟ .

☆ أما التيار الثالث - والذي يعتني مباشرة بتعميق بحوث «إينيس» - فهو يدرس آثار محو الأمية وعلاقتها بنمط الإتصال المسيطر في كل عصر . إن هذا المنظور يعتبر الأكثر تعقيداً والأكثر بشارة في نفس الوقت بالنسبة لعلم الإتصال .

(4) إن البحث حول الدور الذي تلعبه وسائل الإتصال في الرأي العام أخذ في السنوات الأخيرة حيزاً كبيراً جداً من اهتمام الباحثين الغربيين . لكن أهم المقاربات الجديدة التي فرضت نفسها في هذا المجال فهي التي يطلق عليها اسم (agenda setting) أو

«هيكلية المفكرة» إن صح هذا التعبير . يرى أصحاب هذه النظرية بأن هناك علاقة بين النظام الترتيبي (hierachique) للمعنى المعطى لنفس المشاكل من طرف الجمهور والسياسيين . فالوسائل تحدد إذن جدولة الأحداث وقرتب المشاكل .

تقوم هذه النظرية في الأساس على فرضية مؤداها ان الوظيفة الأساسية لوسائل الاتصال لا تكمن في القول للجمهور «كيف يجب أن يفكر؟» بل «فيما يجب أن يفكر؟» ، فارضة اختيارات معينة ومحدودة ، على اعتبار أن كثرة الأحداث في عالم اليوم تقتضي ذلك .

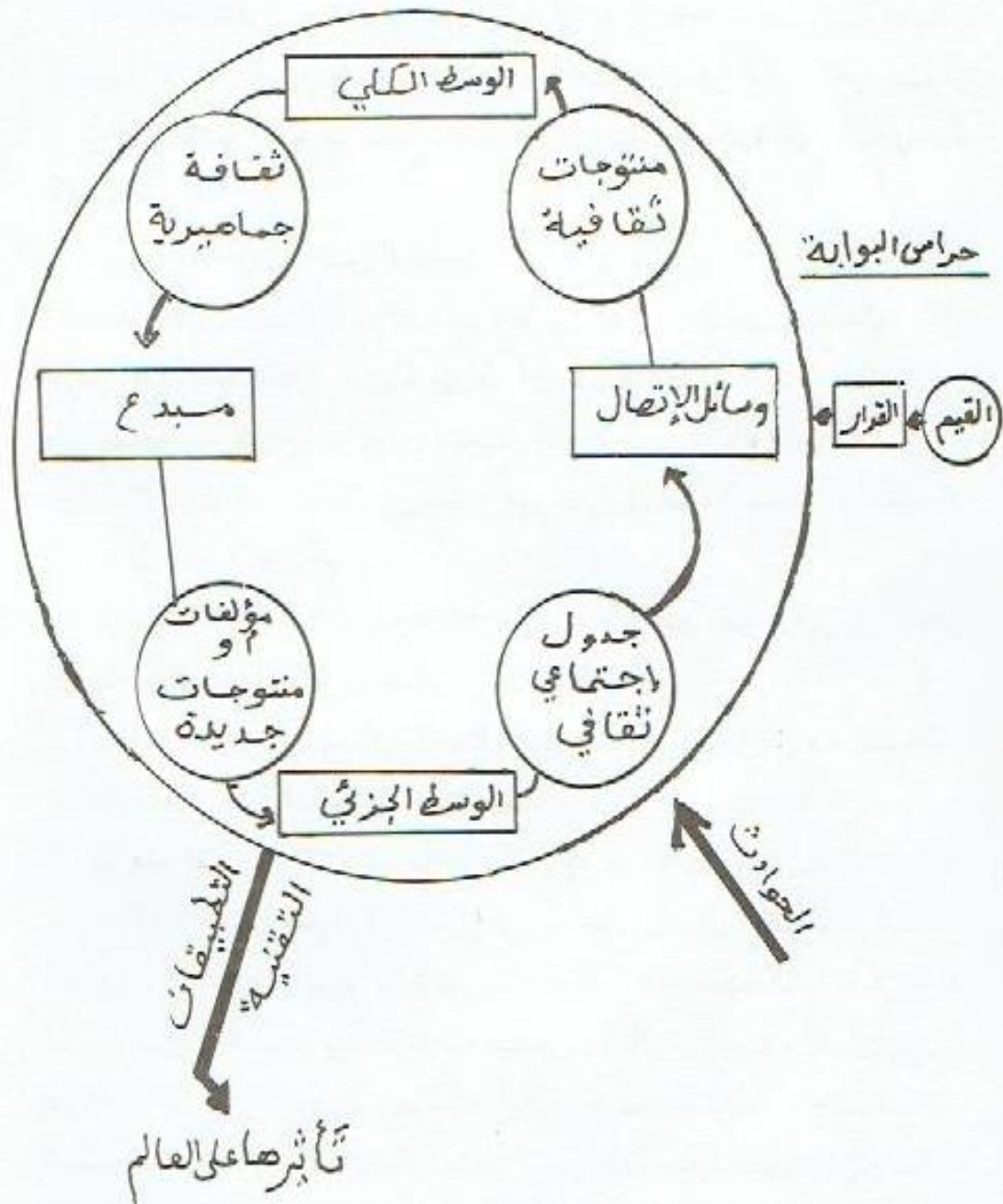
(5) مقارنة أخرى لها نفس الاهتمامات ، أي تحليل دور وسائل الاتصال في الرأي العام على المدى الطويل ، تعرف باسم «حلزون الصمت» ، قدمت صاحبها «نوال نيومان» (Noelle Neumann) فرضية مؤداها أن أغلبية الأفراد ، خوفاً من أن يلفظوا وأن يصبحوا غير شعبيين ، يحاولون تشخيص آراء الآخرين وأتباع رأي الأغلبية . كما أن لوسائل الاتصال - حسب نيومان - دور بارز في هذه العملية لأنها تعتبر أهم المصادر المرجعية لإعلام الجمهور .

(6) أما أفكار «أ. مولس» (A. Moles) فتعتبر طرحاً متميزاً آخر يبعث على التفكير بطريقة جديدة في العلاقة بين وسائل الاتصال والمجتمع : يرى صاحبها بأن وسائل الاتصال تحول الثقافة عن طريق ما يسميه هو «بالثقافيات» أو «الفيسفساء الثقافية» (Culturemes) .

إن هذه الفيسفساء الثقافية ، ما هي إلا عبارة عن الأفكار الجديدة الدائرة في رسم بياني ، يتمثل محركها الأساسي في وسائل الاتصال (أنظر الرسم البياني المرفق) . وبما أن هذا الرسم عبارة عن دائرة مغلقة ، فإن نقطة البداية لا توجد أصلاً أو هي في الحقيقة مرتبطة بوجود مبدعين : العالم ، الأديب ، الفنان إلخ ... هؤلاء هم الذين يخترعون ويصنعون أفكار جديدة تنقل لاحقاً لمختلف الجماعات . إن هذه الأفكار الجديدة المعبر عنها «بالثقافيات» تشمل قائمة لا متناهية ... بدءاً بوصفة طبخ وانتهاء بأعقد الإكتشافات العلمية . ويمثل كل ذلك قاعدة الثقافة الجماهيرية .

إن لوسائل الاتصال - حسب مولس - دور كبير تلعبه في الثقافة الحديثة ، بل انها تعتبر في الواقع الناقلات الحقيقية للاتصال والثقافة .

الرسم البياني



الرسم البياني الذي يوضح "بالتفصيل" العلاقة بين الثقافة والتكنولوجيا "أ. مولس"